البطل الروائي الشرقي والغرب

طلال حرب

تمهيد

نحاول في هذا البحث أن نتلمس أبعاد احتكاك البطل الشرقي - كممثل للشرق الحضاري - بالغرب واكتشاف ماهيته وقدرته الفاعلة كما جسّدتها القصة العربية.

وقد لاحظنا ان هذا الاحتكاك قد فجر ثنائية حادة تقوم على مواجهتين:

١ - مواجهة البطل الشرقي للشرق وصراعه من أجل النهضة به.

٢ - مواجهة البطل للغرب الحضاري وقد أثقلها. وحدّ من موضوعيّتها كونُ البلد الغربي الذي احتك به البطل الشرقي هو الذي استعمر وطنه، فكان عليه أن يعاني من هزيمتين: واحدة على الصعيد الحضاري وأخرى على الصعيد السياسي، فلم يستطع أن ينسى أن هذا الغرب (فرنسا أو بريطانيا) الذي جاء ليكتسب حضارته (فأغلب الأبطال الشرقيين طلاب) هو عدو مستعمر لبلده أو قد استعمرها إلى فترة قريبة. وهو ما كان ينعكس في نظرة الغربيين إليه ونظرته هو إليهم.

ومن هنا فقد شُحنت هذه المواجهة بشحنة عدائية، وبدا البطل الشرقي يدافع بكل وسيلة موضوعية أو غير موضوعية ليخفف من حدة الدونية التي يشعر بها تجاه الغرب الاستعماري الحضاري، وليقلل من التعالي الذي يشعر به الغرب نحوه، وإن لم يصرح به أحياناً فإن البطل الشرقي يحسّ به كوجه آخر لدونيته.

هذه المواجهة بين الشرق والغرب تتكامل بالقصة النسائية، لا سيما وأن القصة الرجالية تدور في إطار علاقة عاطفية أو جنسية، مما يؤمن فرصة تاريخية للمرأة الشرقية كي تقارن بين وضعها ومفاهيمها ومسلماتها وبين وضع المرأة الغربية و «امتيازاتها». ولكننا وجدنا بكل أسف أن القصة النسائية أقل عدداً وجودة فنية، ولكنها حافلة بالدلالات لا سيما وأنها كالقصة الرجالية خلاصة تجربة شخصية تمّ انضاجها واكمالها فنياً.

ونحن نأمل أن نساهم عبر هذا البحث في تلمس الفكر العربي، في مسلماته الأولى ومصادراته التي يستند إليها في القراءات التي يتخذها وفي التوجهات الأساسية التي يسلكها ويصبو إليها.

١ - الاحتكاك بالغرب الاستعماري

في الروايات التي تدور حوادثها في أوروبا الغربية، تطالعنا ظاهرة مشتركة هي مجيء البطل إلى الغرب للتعلم في جامعاته. فهو يريد التخصص في الأدب (الحي اللاتيني) لسهيل إدريس. أو في الاقتصاد أو الشعر (موسم الهجرة إلى الشمال) للطيب الصالح. أو الهندسة (السنفونية الناقصة) لصباح محي الدين. إذن هناك ظاهرة المجيء إلى الغرب للتعلم والتثقف الذي يمثله إقبال جميع الأبطال على الاطلاع على الجوانب الثقافية من فن وأدب وموسيقى ومسرح. ونحن إن استقرأنا هذه الظاهرة نتوصل إلى النتائج التالية:

١ - تفوق غربي في الميدان العلمي وحالة مزرية من التخلّف الشرقي العربي، إذ أن بعض هؤلاء الأبطال يتخصصون في أدب لغتهم القومية العربية.

٢ - اعتراف شبه اجماعي بهذا التفوق مع محاولة كشف بعض السلبيات في الجانب الإنساني، وهو جانب فضفاض وغير دقيق، ومن الصعب تعميمه، خاصة وأن أغلب الأشخاص الذين نجدهم أشخاص متأزمون.

أما إذا اعتبرنا أنهم يحملون بعداً رمزياً يشير إلى أن الغرب بكامله متأزم ومريض، فإننا نرى بوضوح أن بعض هؤلاء الأشخاص لا يستطيعون أن يرقوا إلى مستوى الرمز (كحبيبات مصطفى سعيد مثلاً). وأن هذه الرؤية هي رؤية شرقية، أي رؤية عدائية، وهو ما يشكل ضعفاً في موضوعيتها. وإلا فكيف تستطيع هذه الحضارة أن تتطور باستمرار وبشكل مذهل فيما تعاني من كل هذه الأمراض والأزمات؟.

٣ - هؤلاء الأبطال في مرحلة الإجازة. وفي أفضل الأحوال

في مرحلة الدكتوراه، وبعدها يعودون كلهم إلى بلادهم. بطل واحد يبقي بعد تخرجه (مصطفى سعيد)، ولكنه كان يشكل نسخة مشوهة عن الغرب. وعندما وعي حقيقته رفض الغرب فكراً وأسلوب حياة، وعاد إلى جذوره الشرقية حاملاً معه علم الغرب فقط، فعاد بذلك إلى صف الأبطال الذين سبقوه.

٤- عدم محاورة الغرب في الجانب العلمي والتنظيمي، مما يعني تفوقاً ساحقاً للغرب لا يعود معه بالإمكان القيام بأية مقارنة أو نقد.

٥- انحصر الاحتكاك بين الشرق والغرب في الجانب الإنساني أو بشكل أدقّ في علاقة عاطفية أو جنسية بين بطل شرقي وامرأة غربية. ونحن نجد هذه العلاقة حتى في بعض قصص النساء. وفي الجانب الفني (أدب - مسرح).

وفي كلا الحالين لا نجد بحثاً عمودياً ينطلق إلى أعماق الظاهرة بل يبقى في الميدان الأفقي الوصفي.

٢- ميدان النصوص الأدبية

مع أن هذه القصص تهدف إلى تصوير احتكاك الشرق بالغرب والتفاعل الحضاري بينهما وثنائية الصراع التي يخوضها الشرق ضد الاستعمار وضد نفسه، فإننا نجد أن موضوع كل هذه القصص علاقة غرامية بين الشاب الشرقي وامرأة غربية. حتى في بعض قصص الكاتبات، نجد قصة لغادة السمان في مجموعتها «ليل الغرباء» بطلها شاب وبطلتها امرأة غربية. فبقيت هذه العلاقة محور اللقاء وبقي اللقاء عند القشرة الخارجية.

في هذه القصص ظاهرة مشتركة، هي الكبت الشرقي، باستثناء رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» إذ أن راويتها لم يقم علاقات مع النساء الغربيات، ومصطفى سعيد جاء إلى الغرب عند بلوغه الخامسة عشرة، أي قبل أن يعاني من الكبت المرهق الذي يمنع الإنسان من الفعل، كما تصور ذلك «الحي اللاتيني». وهكذا يكون الهم الأساسي للبطل الشرقي إرواء هذا الكبت فينطلق باحثاً عن امرأة، أية امرأة، لتروي تعطُّشه المحموم. وبعد أن يتوصل إلى ذلك يصل إلى مرحلة الاختيار والانتقاء، وغالباً ما يكون نموذجه أنثى شقراء الشعر زرقاء العينين بيضاء البشرة. ثم يصور لنا تهافت هذه المرأة على البطل الشرقي إلى درجة الانتحار - وينفرد عن هذه الخاصة فؤاد الشايب - ثم يطالعنا مأزق هذه المرأة، أزمتها وانحطاطها وموتها أحياناً. وتختتم بولادة البطل الشرقي. كل ذلك بأسلوب مشحون بالطاقة الرمزية ويريد أن يوحي بأزمة الحضارة الغربية وقرب موتها وقرب بزوغ الحضارة الشرقية.

ونحن مع تحفظنا على هذا الإطار الضيق نعود فنشكك بالقيمة المعرفية التي يحملها هذا الإطار الرمزي الذي تقدمه لنا القصص العربية، ونناقش فيما يلي بعض المفاصل الرئيسية فيه:

١- تطالعنا ظاهرة عامة مشتركة بين هذه القصص تقريباً، هي ارتياح الشاب الشرقي للحرية الجنسية التي تنعم بها المرأة الغربية وتصوير مضار الكبت والفوائد العديدة التي يجنيها الشاب عندما يتخلص منه، وفي الوقت نفسه نجد لوماً أو ضيقاً بالفتاة الشرقية المتخلفة وتحميلها كل المسؤولية في ما يعاني منه الشاب الشرقي، فيتمّ تناسي أن الرجل الشرقي هو الذي وضع أسس هذا الكبت، وأن الفتاة الشرقية تعاني منه كذلك. ويعود هذا إلى أن الشاب الشرقي لا يقوم بعملية نقد ذاتي لمفاهيمه وأساطيره، بل على العكس نراه يرفض صراحة أو بشكل موارب الزواج من المرأة الغربية لأنها لم تكن عذراء يوم تعرف إليها، أو لأنه لا يأمن لها أو للاثنين معاً، وهما من المفاهيم التي تفرض الكبت في الشرق، مما يشكل ازدواجية في التفكير لا نجد معالجة لها في أية قصة.

٢- في قصص الكاتبات، المشكلة أكثر احزاناً، فغادة السمان، المرأة، نراها تشن هجوماً عنيفاً على المرأة الغربية في الوقت نفسه الذيْ تعاني فيه بطلتها من كبت شديد فتتهم المرأة الغربية بالحيوانية والانحطاط والعهر، دون أن تطرح على بساط البحث جذور فكرها الشرقي الذي يستعبدها. وهكذا نجد أن المرأة الشرقية التي تأمنت لها فرصة تاريخية لإجراء مقارنة بين

وضعها وامتيازاتها وعبوديتها وبين وضع المرأة الغربية وامتيازاتها وحريتها - نراها قد أضاعت هذه الفرصة ودلت على استلاب عميق متأصل، بحيث أنها كانت تدعم استلاب الرجل الشرقي وتحكم الطوق الذي يلفه حول عنقها من حيث لا تدري.

٣ - الغرب والموقف منه من خلال هذه النصوص

لا تقدم لنا أية قصة صورة متكاملة ودقيقة عن شتى معالم الغرب، بل نجد عادة أسماء بعض الشوارع والعديد من أماكن الفن « مسارح - صالات عرض » وأماكن الخمر « الحانات » ومع تصوير العلاقة التي تنشأ مع فتاة غربية - أغلبهم يحصلون على فتاة شقراء الشعر وزرقاء العينين أو خضرائها - لضرورة الرمز على ما يبدو، إذ يزعم أن هذه هي صورة الغرب والعلاقات الموجودة فيه. ومع تحفظنا على هذا المنحى العام فإننا سنحاول جاهدين تحديد صورة هذا الغرب كما يتراءى لنا في هذه القصص.

١ - بلاد خضراء منظمة، كثيرة الماء، بيوتها تختلف في شكلها عن بيوت الشرق، وهي بلاد باردة جداً ولا ترى الشمس كثيراً بل هي كثيرة الأمطار.

٢ - أحزابها كثيرة مما يدل مع معالم أخرى على حياة ديمقراطية.

٣ - وجود نزعة عنصرية يعاني منها الشرقيون ولكنهم مسؤولون جزئياً عن وجودها بتصرفاتهم وشغبهم.

٤ - حرية المرأة الكاملة مما يتيح لها إقامة علاقات جنسية كاملة مع الرجل بدون زواج.

٥ - وجود شيء من التهتك والمجون في الحياة الغربية يصل إلى الحيوانية وعدم وجود أية موانع أو زواجر.

٦ - معاناة الفرد الأوروبي من وحدة عميقة ومن أزمات نفسية واجتماعية نتيجة لوجود المميزات السابقة بالإضافة إلى نمط الحياة.

٧ - ضعف الروابط الأسرية حتى تتكون الأسرة بشكل أساسي من نواتها الأولى أي الأم والأب وأولادها، فلا وجود لأسرة كبيرة تشد جميع أفرادها كما أن الابن (أو الابنة) يقيم بمفرده متى بلغ سن الرشد.

٨ - وجود أزمات اقتصادية.

٩ - سرعة الحياة وآليتها.

هذه صورة الغرب كما تبدو خلال القصص التي طالعناها، وهي في معظم ملامحها صورة قاتمة عن الحضارات التي أعطت العصر الحديث طابعه، إذ تم تغييب كافة جوانبها المضيئة. وحتى صالات الفن لا نسمع إلا باسمائها وباسم ما تعرضه دون أن يتم البحث في ابعاده وربطه بالبلاد التي أنجبته!

ما هو الموقف من هذا الغرب؟

تتعدّد هذه المواقف مع تغير القصص وتغير المنطلق والهدف وعمق النظرة. ومع العلم أن هناك الكثير من السمات المشتركة فسنعمد إلى التفصيل بغية التوصل إلى الدقة في الرصد.

١ - مستوى القبول العاطفي (السنفونية الناقصة).

بطل هذه القصة منطلق على سجيته في الغرب، يصور عَدوَه وراء المرأة بكل صراحة ودون مواربة، فيشبه نفسه بديك كثير الفيتامينات في مزرعة الدجاج. وبما أن كلمة « دجاجة » بالفرنسية تعني أيضاً موماساً أو عاهرة، فإن هذا التشبيه بكل أبعاده يرخي ثقله على رؤية النص ويكشف العديد من جوانبها.

والبطل مسرور جداً في هذه البيئة التي خلصته من الكبت، هو قد انتقل من مرحلة الرغبة في أية امرأة إلى مرحلة الانتقاء والاصطفاء. ويتم تشبيه اكتساب ودّ المرأة الغربية وجرها إلى السرير بالصيد، وتشبّه هي نفسها بفريسة.

نجد في هذه القصة فرحة كبيرة بهذا الغرب، وفي القصة الثانية من المجموعة نفسها (بوق سان جرمان) يعترف الكاتب بصراحة بمله من الشرق وزيفه ويعود إلى هذا الغرب الذي قضى فيه أياماً خالدة.

٢ - مستوى القبول الحضاري (تاريخ جرح)

الشاب الشرقي يدرك تخلفه بوضوح ويدرك أنه بحاجة إلى حضارة الغرب فيقبل عليها بأعين جائعة وفكر ناضج كي يستوعبها، يتقنها ثم يمتلكها. وهو يظهر وعياً كبيراً عندما يرفض أن يلعب لعبة الغرب، يرفض أن يمثل الشرق الأسطوري كما تصوره الكوميدي فرانسيز، ويصر على فضح صورة الشرق، ولكن أيضاً على تقديم صورة واقعية عنه حتى وإن كلفه ذلك خسارة امرأة غربية، وبالتالي كل ما تؤمن له من متع كبيرة. هنا لا مجال للوهم أو الاستلاب، فالبطل يعرف موقعه وحدوده وأبعاده. عليه اليوم أن يقوم بدور التلميذ ولكنه تلميذ ذكي ينم عن الابداع وليس التقليد.

هذا ما تصوره لنا قصة (أحلام يولاند) من مجموعة « تاريخ جرح » لفؤاد الشايب. أما قصة (الشرق شرق) فيتم فيها تعرية هذا الشرق وإظهار بؤسه وخيبته الكبرى أمام الغرب الذي يرفض مسلماته الأولى. وهكذا تكتمل الصورتان في صورة واحدة. في رؤية واحدة وبعد واحد عميق.

٣- مستوى الرد الحضاري (الحي اللاتيني).

بطل «الحي اللاتيني» متأثر بالحضارة الغربية إلى حد كبير، ونحن نلمس هذا التأثر منذ بداية رحلته إلى الغرب حيث يشير عبر عدة رموز إلى بداية انقطاع بينه وبين الشرق ورغبته في تكوين جديد. ونلمس تأثره في إعجابه بالفيلم الذي شاهد عنوانه وعرف أن أبطاله هم (سارتر، اندريه جيد، بيكاسو) وفي النموذج الأنثوي الذي يرغب فيه ببعده الرمزي المعروف عند أغلب الروائيين إن لم نقل كلهم. ونلمسه أيضاً في تصرفاته عند عودته إلى منزل العائلة والتقائه بـ«ناهدة». بطل «الحي اللاتيني» في تصرفاته هذه يظهر الوجه الثاني لهذا التأثير، أي عدم تكيفه مع بيته الأصلية. هذا البطل المتأثر إلى حد كبير بالحضارة الغربية لا يريد تقليدها ولا يرغب في تبنيها، إنما يمتلىء رغبة بالرد على هذه الحضارة، بأن لا يجد في بلاده حضارة تضاهيها فحسب بل تتلافى أيضاً نقاطها السود. ومن هنا نستطيع أن نفهم ضيقه الشديد بناهدة لأنها لا تملك أن تكون بديلاً لجانين- مع العلم أن هذا أحد الأسباب فقط- ونلمح طموحه في الرد على الغرب في اعجابه الشديد بفؤاد الذي يجسد هذا الطموح وفي تبنيه القومية العربية التي تؤكد على الهوية الحضارية المتميزة على الغرب. ليس من الضروري أن يكون طرحه للقومية العربية طرحاً للمفهوم السياسي بحذافيره كي نتكلم عن «عدم وضوح» بل إن هذه الضبابية بعينها قد تعني التوكيد على الهوية العربية في الحضارة التي يطمح أن يساهم ببنائها، أن يراها في بلاده، حضارة خاصة بهذه البلاد غير تابعة لأحد ونابعة في جذورها العميقة وممتدة بقامتها المديدة لتحتل مكانة الحضارة الغربية التي تتساقط.

٤- مستوى التأثر العلمي الواهم (موسم الهجرة إلى الشمال) و(قنديل أم هاشم).

مصطفى سعيد يكتشف في الرواية الأولى جذوره الشرقية وحتمية انتمائه إلى مجتمعه فيعود من الغرب، طبعاً بعد أن يصور حضارة الغرب «المريضة والمحتضرة». فيقوم بتجزئة الغرب بشكل تلفيقي انتقائي ليأخذ منه العلم ويطرح الفكر. فيلصق هذا العلم على الجسد الشرقي ضاماً إليه الفكر الإسلامي. إنه مثل بطل «قنديل ام هاشم» ليحى حقي يريد أن يكون في منتصف المسافة بين الشرق والغرب. ولكن هل هذا الفعل علمي؟.

هل نستطيع اقتطاع العلم عن الفكر؟ هل استطاع العلم الغربي أن ينتشر ويؤسس الثورات الصناعية قبل أن يمهد له الطريق الفكر الغربي ويقدم له بذلك أرضية صلبة عبر ثوراته الاجتماعية؟

٥- مستوى الرفض العاطفي (ليل الغرباء).

مع أن الكاتبة امرأة شرقية جوبهت بمفاهيم جديدة تعلي من شأن المرأة وتعلن مساواتها بالرجل، مما يشكل فرصة تاريخية لهذه المرأة كي ترى استغلال الرجل لها وعبوديتها التاريخية

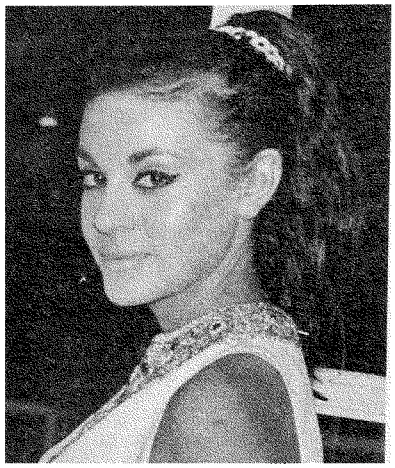

وحرمانها من جسدها ومن ذاتها واعتبارها شيئاً يملكه الرجل، فإن بطلة «ليل الغرباء» لغادة السمان لا ترى حتى الفرق الكبير بينها وبين أخيها، بين بؤسها وما يتمتع به أخوها. بل إنها بدلاً من أن تطرح التساؤلات الكبيرة وتعيد النظر بالمفاهيم المزروعة في ذاتها، تهاجم الحرية الجنسية عند المرأة الغربية وتشبهها بعمل حيواني وتعطي صورة انفعالية كالحة عن الغرب، فهو إما شاذة جنسياً أو قوم غريبو الأطوار أو مومس تبيع جسدها لتطعم أولادها وزوجها المشلول. ونحن نتوقف عند هذه الصفة «المشلول» الذي ينظر بعين الحقد إلى بطلها «وهو ذكر أيضاً» الشرقي. فهل هي دعوة للغربي كي يقمع زوجته؟ هل هي دعوة للحد من حرية المرأة؟ هل هي دعوة للحد أو للتقهقر بمثل المجتمع؟ لا سيما وأنه مجتمع أسود تماماً. كما قدم لنا على الأقل؟.

إن ثورة البطلة غريبة جداً، فهي عندما تصل إلى قمتها تحاول أن تقلد الرجل الشرقي في الحصول على اللذة بواسطة المال، ولكنها مع ذلك لا تصل إلى أبعد من الخروج مع امرأة، فتكشف بذلك عن مقدار وهمها وتمسكها بقيودها.

وهكذا يتم رفض الغرب رفضاً انفعالياً عاطفياً دون التمعن في وجهه (الكريه) على الأقل لتبني حقيقة جذوره ومسلماته، وأنه عند ذلك تصبح مسألة التطبيق أو ممارسة شيئاً آخر وتأخذ حدودها الفردية الخاصة، بينما الجذر. أي المفاهيم الكامنة خلف هذه الممارسة، يقوم على تقدير بالغ للمرأة.

٦- مستوى الرفض العلمي الزائف (عصفور من الشرق).

في هذه الرواية لتوفيق الحكيم نجد رفضاً للغرب يطمح إلى أن يكون رفضاً علمياً فلا يهاجم الغرب شخصياً فقط أي على لسان بطل شرقي بل يجري هذا الهجوم على لسان أحد الغربيين، أي الغرب نفسه، ويجعله بالتحديد على لسان روسي هارب وكأنه يريد جمع الغربين الرأسمالي الاستعماري والاشتراكي في شخصية إيفان الذي يعيش في باريس. وبما أنه هارب من بلاده فهو ضد حضارتها، وهو كذلك ضد الغرب الرأسمالي، وهو في الحقيقة لا يكف عن اتهام الغربين فيعدد مساوئها وأمراضها متنبئاً بقرب موتها، ومتوصلاً إلى نتائج غريبة، منها أن الصناعة آفة الآفات، وقراءة الكتب عادة رذيلة كالتدخين، وإلى أن الثقافة المعاصرة ثقافة في معظمها تافهة في الدرجة العاشرة، كما أنه

يرفض ديمقراطية التعليم التي أخرجت العلم من حق خاص لفئة قليلة وجعلته حقاً لكل إنسان. كل هذا في الثلاثينات وأوائل الأربعينات! وبالرغم من أن « إيفان » غربي فليس لكلامه قيمة غربية بل له قيمة شرقية بحتة، على اعتبار أنه صادر في رواية عربية وموجه إلى القراء العرب، فما هي الفائدة العملية التي نجنيها من هذا الكلام؟ هل ستكون قدرة على إنتاج حضارة جديدة ام ستدفع بنا إلى مزيد من التخلف والاغتباط بواقعنا الذي لم يعرف الصناعة وآفاتها، وما زال نصف شعبه- إن لم يكن أكثر بكثير- أمياً؟.

إن فكراً من هذا النوع تستطيع بكل سهوله إثبات عمقه وزيفه. فلا يعود هذا الرفض إلا رفضاً عاطفياً مسبقا تمّ إلباسه ثوباً علمياً زائفاً.

٧- مستوى الرفض الشامل الواهم (موسم الهجرة إلى الشمال)

يرفض « الراوية » الغرب رفضاً شاملاً فيخبرنا بكل بساطة أنه قد أمضى سبع سنوات في الغرب وهو يحترق شوقاً إلى أهله. وعندما عاد، عاد إلى جده وقريته مسروراً بعودته إلى الشمس بعد أن كاد البرد يجمد أطرافه ويشل حياته، وهو يقول بكل بساطة أن الغرب الذي جاء لا يدري لماذا (!) سيخرج ذات يوم من بلاده وسيرث الشرق كل معالم الحضارة ومرافقها، فيعود إلى جده مطمئناً واثقاً أنه حين يضمه بين ذراعيه فإنه يضم ثروات لا حصر لها.

يبدو واضحاً من هذه المواقف أن البطل الشرقي يقف من الغرب موقفاً مثالياً، فهو لا يرفض الغرب على أساس الشرق بل يرفضه بشكل إنساني عالمي، متناسياً أن الشرق نفسه يعاني من الكثير من السيئات وبعضها بعض ما يرفضه الشرقي في الغرب، ولكنه هناك يرفضه وهنا لا يشير إليه، بل أحياناً تبدو بعض المساوىء الشرقية نِعَماً يجابه بها الغرب مع علمه بتأففه السابق منها، وكل ذلك يكشف نزوعاً شديداً عند الرجل الشرقي إلى هدم صورة مسبقة عن الغرب تعتبره قمة الحضارة، وهو بالتالي عندما يهدمها يستعيد الكثير من توازنه.

هذه الأوالية الدفاعية العقيمة منعت البطل الشرقي من رفض الغرب كغربي على الأقل، فهناك العديد من الأصوات الغربية التي تنتقد الوضع الاجتماعي، ولكن البطل الشرقي المحكوم بهزائمه ورغبته الهائلة بالتفرد يتجاهل هذه الأصوات ويصم أذنيه عن الحلول المطروحة ولا يربطها مطلقاً بالنظام السياسي وكأنه يرفض البديل الاشتراكي له أو حتى الإصلاحي، بل هو يساوي أحياناً بين المعارضة اليسارية والحكم في اندفاعه الشديد لاستعادة توازنه المنشود بدلاً من اكتساب الحضارة الغربية وامتلاكها.

كما أنه يقع في الازدواجية. إذ نراه يقبل بعض الظاهرات (كحرية المرأة ونقيضها شرط العذرية) مما يجعله يدور في حلقة مفرغة تبقيه بعيداً عن ثورته التي يطمح إليها وتحيله إلى نزعة انتقائية لا نثق بجدواها.

٤- المفاهيم الشرقية والغرب

هناك جملة من المفاهيم يجابه بها البطل الشرقي الغرب الاستعماري عند الاحتكاك به في عقر داره، ولكن من الضروري التمييز بين المفاهيم الشرقية وبين المفاهيم الأخرى التي قد تكون متبنّاة في الغرب أيضاً، أو على صعيد عالمي.

١- الروحانية

أول هذه المفاهيم هو الروحانية، وهو ما يكاد أن يكون صفة مشتركة بين جميع القصص التي كتبت، فالشرق روحاني والغرب مادي، بالمعنى المبتذل لهذه الكلمة، ولكن ما هي الاعتبارات أو المنطلقات التي جعلت البطل الشرقي يكوّن هذه الفكرة؟.

١- العلاقات المادية في الغرب، أي العلاقات القائمة على المنفعة وأهمية المال.

٢- التفكير العقلي المسيطر وتقهقر الدين.

٣- التمييز بين الحب والجنس. فالفتاة الغربية تؤمن بالحب وتؤمن أيضاً بالجنس ، وهي تستطيع أن تقوم بالممارسة الجنسية بلا حب، مما يجعل من هذه العلاقة الشفافة علاقة حيوانية.

٤- السرعة، سرعة الحياة، فالكل يركض إلى العمل وإلى البيت وإلى النزهة وإلى موعد غرامي، الكل يركض، وكأن الجميع آلات تقوم بأعمالها وتعود إلى منزلها.

٥- الوحدة: الغربي وحيد، يعيش حياة هدامة على الصعيد النفسي لأنه يفتقر إلى الأصدقاء، وهو بالتالي معزول، كرة مطوية على نفسها، على أفراحها وأتراحها.

٦- تفكك الأسرة: الأسرة بالرغم من صغرها واقتصارها على نواتها الأولى تقريباً الأب الأم والأولاد، فإنها أيضاً تتفكك وتنقسم على نفسها إذ يغادرها الأولاد عندما يستطيعون وربما

انصرف الزوج أيضاً إلى حياة خاصة وكذلك الزوجة، لا يردعها رادع الأمومة ولا حرمة الزوجية.

٢ - **الكبت:** ثاني المفاهيم الشرقية هو الكبت، وهو أن لامس العفة في بعض قصص النساء فإنه ينكشف على حقيقته الهدامة في قصص الرجال، فإذا الإنسان الشرقي المكبوت إنسان مسحوق يهفو إلى المرأة ولا يستطيع الحصول على ما يشبع فهمه، فهو تواق إلى المرأة الغربية كي يستعيد رجولته ويتمالك أعصابه ومن ثم ينطلق في ميدان الإبداع والنضال، لذلك فإن أول اهتماماته بل همه الأول والوحيد - على الأقل في المرحلة الأولى من إقامته في الغرب - هو الحصول على امرأة، أية امرأة. وبعد أن يشبع هذه الشهوة يبدأ مرحلة جديدة بعد أن يتمالك أنفاسه، مرحلة الاختيار أو بالأحرى مرحلة التفتيش عن المثال المفضل للشرقي، وهو الأنموذج الغربي الذي رسمه في خياله: امرأة شقراء الشعر، زرقاء أو خضراء العينين، بيضاء البشرة. أي نقيض المرأة الشرقية تماماً، فهل رغبته الجامحة بهذا النقيض تكشف عن نظره إلى احتقار المرأة الشرقية وضيق بها؟ بالإضافة إلى توقه إلى المرأة الغربية وكل ما تمثله؟.

٣ - **سوء النظرة إلى المرأة:** الشرقي بطبيعة لا يثق بالمرأة، وآدابنا التراثية تشير إلى خيانة المرأة وضعف عقلها وربما لذلك تجري في بعض البلدان الشرقية عملية اجتثاث رهيبة للعضو الذي يمنح المرأة القدرة على الاحساس باللذة، مما يعيدها بشكل قسريّ إلى الدور الذي رسمه لها الرجل، إلى دور الأم والخادمة والعشيقة التي تشبع شهوته ولا تشعر هي بحاجة جنسية أو على الأقل لا تظهرها. وما نزال إلى اليوم ننظر بعين الريبة والازدراء للفتاة التي تظهر ميولها الجنسية أو شيئاً منها.

هذه النظرة التشييئية للمرأة يحملها الرجل الشرقي معه إلى الغرب، فهو ينظر إلى المرأة الغربية الحرة والمنطلقة نظرته إلى مومس مجانية، فلا يشعر بأقل حرج في أن يشتهي صديقة صديقه أو أن «يَرِثَها»، بل هو يستخدم كل طاقته الإغرائية كي يصل بها إلى سريره. وهو إذ يعتبر أن المرأة تعطي ولا تأخذ لا يبحث عن مطالب الفتاة الغربية الجنسية وحاجاتها، بل يعتبرها فريسة ويعتبر نفسه صياداً. ومن الطبيعي أن هذا التشبيه بحد ذاته يحمل أبعاد النظرة الشرقية. فالفريسة لا تجني من الصيد إلا الألم الكبير أي الموت، وكذلك المرأة الغربية تموت أي تُهجَر لحظة شَبَع الرجل منها. وهو انطلاقاً من منطق «الصياد» يشعر أحياناً بازدراء الفتاة الغربية (الصريحة) ويخوف منها ينعكس في رفضه الزواج منها بسهولة مع أنه يُحبها أحياناً.

٤ - **مفهوم عذرية المرأة:** الشرقي الذي تتاح له الفرصة للعيش في الغرب يعيش في ازدواجية كبيرة، فهو لا يستطيع أن يتزوج الفتاة لأن غيره قد سبقه إليها، إذ لم تكن عذراء يوم تعرف إليها، فهو يريد أن يكون الأول والأخير، ولما لم يكن الأول وليس على ثقة من أنه سيكون الأخير، فهو يرفض بعناد الزواج منها حتى وان شعر بشيء من الحب نحوها. إنه على استعداد لأن يعيش أزمة ضمير حادة ومدمرة، ولكنه ليس على استعداد للزواج منها. بطل «الحي اللاتيني» تراجع عن موقفه (القَذِر) إثر التشكيك بمبادئه. ومن الطريف أن نشير إلى أن صاحب التشكيك نفسه قد تخلى عن فتاته الغربية، ولكن ربما بأسلوب أكثر ذكاء. ولكن يبقى أن الزواج لم يتم وهو ما يشكل اتهاماً حاداً للبطل، خاصة لأن لهذا الزواج بعداً رمزياً ونحن لا نجده قذارة بل نجده سلبية في البطل، وبذرة منخورة في الأمل الذي يبنيه، ونحن نرى أن «الحي اللاتيني» تصور البطل السلبي، أي البطل الذي يحمل بين طيات أمله عوامل فشله[1]. وإذا كانت العوامل الاجتماعية قد برهنت على ذلك فإن في بنية الرواية الكثير من الإشارات الاتهامية لهذا البطل، وهو ما يسمح لنا بالنظر إليها من زاوية فضح البطل الشرقي ومسلماته الفكرية، بدون تعسف.

في (موسم الهجرة إلى الشمال) تزوج مصطفى سعيد امرأة غربية، ولكن بدا زواجه الرمزي أيضاً وكأنه خطة من خططه لاصطياد امرأة غربية ممتنعة عليه. وعندما وقع في الفخ الذي نصبه، حوَّل لعبته إلى واقع وقتل حقيقة المرأة التي كشفت حقيقته ثم عاد إلى جذوره الأكثر عمقاً ونقاء، إلى قرية مغمورة على النيل، وعاد إلى تقاليده المحافظة وإلى الزوجة الشرقية وانجب منها ولدين بينما لم ينجب من زوجته الغربية.

٥ - **الأساطير والتفكير الخرافي:** تتحكم الأساطير العديدة بتفكير الشرقي، فهو يعتقد أنه متفوق جنسياً وان المرأة الغربية سترتمي في أحضانه بمجرد أن تطأ أقدامه أرض الغرب. ولذلك نراه يصاب بخيبة أمل كبيرة عندما لا يتوصل إلى الحصول على فتاة، أو عندما تصدَّه فتاة غربية، وهو لا يتصرف بحسب مقولة السبب والمسبب، بل بحسب طريقة الحظ والقدر. ولذلك يتصرف بشكل غريب، وينتظر مع ذلك نتائج باهرة.

البطل الشرقي مشبع بأساطير ألف ليلة وليلة عن المرأة، وبأسطورة الروحانية وتفوق الشرقي وشهامته، وبأسطورة نذالة الغرب وخسّته. وتتوضح هذه الأساطير وتفكيره الخرافي في أواياته وردّات فعله ومنهجيته. فبطل «الحي اللاتيني» أمسك بيد فتاة في الظلام وشعر بنشوة بالغة ثم أعطاها موعداً في اليوم التالي عند باب السينما. وذهب قبل انتهاء الفيلم ودون أن ينتظر اضاءة الأنوار كي يرى وجهها. ونام ملءَ جفنيه دون أن يتطرق إليه الشك في أنها ستأتي، وعندما لم تأت انتابه اليأس ثم انطلق إلى احضان عاهرة.

وبطل «الشرق شرق» يعطي صورته متباهياً لفتاته الغربية، ويصاب بالدهشة والذعر عندما تنقطع عن لقائه وتعيد صورته

---

(١) كتب كثيرون عن «الحي اللاتيني» وخاصة عن الجزء الثالث. ونحن نعتقد ان الرواية تعمل على المستوى الدلالي، فلا يفيدنا كثيراً أخذ معاني الكلمات بحذافيرها، إذ أن الخاص فيها يلتحم بالعام بشكل معين، بحيث يصعب الفصل بينهما. وهنا إشكالية الرواية، فأي بحث يفصل بينهما فينظر إلى الرواية من زاوية الخاص أو من زاوية العام فقط أو تارة هذا أو تارة ذاك يخاطر بأن تكون رؤيته هزيلة.

ساخرة.

مسلمّات البطل الشرقي هي في أغلبها مجموعة من الأساطير الراسخة رسوخ الجبال والمكتسبة أحياناً صفة التقديس، وهو يتبع النمط الخرافي، مكرراً أنه سيء الحظ بدل أن يعترف بقلة الذكاء.

٦- **الدونية:** الشرقي الذي عاش لفترة في الغرب - خاصة الفترة الزمنية التي تسجل لها هذه القصص، أي من الثلاثينات إلى الستينات - شعر بدونية ساحقة ومرّة. ولما كان لا يستطيع أن يفر من سواد عينيه واسمرار بشرته، فإن من الصعب التخلص منها، خاصة عندما يكون المكان الغربي الذي يحتك به هو الدولة المستعمرة لبلده. فهو يدهش أمام الرقي الذي يطالعه في شتى الميادين ويقوم مرغماً ولاشعورياً بمقارنة بين ما يشاهده وبين بلده، فيحس بالفرق الشاسع. ولكي يستعيد ثقته بنفسه على الأقل في نظر الغربيين - يلجأ إلى شتى الأساليب بما فيها الاستنجاد بالشرق الأسطوري وبالمناخ الدافىء الذي لا يَدَ له فيه وبالتضخيم الكبير لبعض معالم الشرق التي يكون هو نفسه أحياناً قد شعر بالانزعاج منها، كي يؤكد تمايز الشرق عن الغرب، وهو يبحث دون كلل عن أي ميدان ينتصر فيه على الغربي، ولا يجد أمامه إلا ميدان العلاقات الإنسانية والا الأفراد المتأزمين، فيصوّر نفسه بشتى الصور التي تسترعي انتباه هذا النوع من الفتاة الغربية وتوصلها إلى فراشه كي لا ينبذها فيما بعد فقط بل كي يتباهى في الشرق بهذا الفوز وكي ينتزع الاعتراف برجولته في عالم يخصي رجاله سياسياً واجتماعياً وإنسانياً.

هذه الملامح التي تطالعنا في الرجل الشرقي هي في معظمها سلبية، وتشكل عائقاً كبيراً أمام الشرقي في حواره مع الغرب، وتكاد تحكم بفشل هذا الحوار وعدم امكانية توصله إلى شيء. وما يبعث على اليأس ان بعض هذه السلبيات تبدو كايجابيات مقدسة في عين الشرقي. وهكذا بدلاً من أن يكشف الغرب سلبياتها للبطل الشرقي نجد أن هذا الأخير، مدفوعاً بعوامل أخرى، يتشبث بها مما يجعله بشكل ما متشبثاً بظروف تخلفه أكثر مما كان قبل الاحتكاك بالغرب، فتتعقد مهمته ويبدو بوضوح أن لا سبيل إلى خلاصه إلا بجهود جبارة تبدأ بنقد مسلماته الأولى ونمط تفكيره وأولياته ليتمكن بالفعل من تحقيق ما يصبو إليه وما يزعم أنه في سبيل تحقيقه.

٥- صورة الشرق في هذه القصص:

يلوح لنا الشرق، على عكس الغرب، بلاداً قاحلة، مليئة بالشمس حتى أنها تصبح لعنة تنشر الجدب والجهل والكسل. وهي بلاد قليلة المياه كثيرة التخلف، فالنهر الأكبر الذي لولاه لم تكن حياة يتحول إلى رسول للموت فيفيض ويغرق المزروعات والناس بدلاً من أن يشكل ثروة اضافية أيام فيضانه، وهو ما كان يكفله العلم والرقي الحضاري.

وهذا الشرق يبدو لنا شرقين: شرقاً قديماً وشرقاً حديثاً. القديم يبدو كجذر للحديث يتم التشبث به على اعتبار أنه الأصل أو الأساس الذي يجب أن يتم البناء عليه، ولكنه لا يقبل كما هو تماماً، بل نشهد نزعة إلى إقصاء الجوانب السيئة منه وتنقيته من الشوائب التي تعيق حركة التقدم. وأما الحديث فيبدو متخلفاً، لكنه مليء بالرغبة في التقدم والتحضر، وهو يسعى جاهداً في سبيل تأسيس حضارة لا تكون حديثة فقط بل بديلة للحضارة الغربية المحتضرة. وهذه بعض الملامح التي تطالعنا والتي نلمح بوضوح نقيض الغرب فيها.

١- عدم تعدد الأحزاب، مما يشير إلى عدم وجود حرية وديمقراطية.

٢- لا حرية للمرأة، ولا حياة جنسية لها خارج مؤسسة الزواج، يقابله حرية أكبر بكثير للرجل، إذ أنه يستطيع شراء لذته واختطافها بسبل شتى، ومنها الحصول على أكثر من زوجة، أي أنه ضمن مؤسسة الزواج نفسها يتمتع بحرية تعدّد الزوجات.

٣- وجود كبت خانق خاصة عند الشبان الصغار الذين لم يبنوا مستقبلهم بعد والذين هم في صدد بنائه.

٤- قوة الأسرة وتجاوزها نواتها الأولى إلى محيطها الكبير ووجود قوة اكراهية لها تعيق أحياناً حركة الفرد وتحمله على التصرف بشكل معين ومحدد.

٥- عادات وتقاليد قوية تضغط على الفرد الذي لا يستطيع مخالفتها بسهولة.

٦- وجود علاقات اجتماعية قوية إلى درجة مزعجة تقلق راحة الفرد وتحرمه من جزء كبير من حريته.

وهكذا نجد أن بعض ملامح هذا الشرق التي تبدو شديدة الازعاج للفرد هي نفسها التي كان يشير إليها الشرقي في الغرب في رفضه للعلاقات الفردية الغربية. ففي حين أنها بدت ايجابية هناك، تبدو سلبيتها بوضوح هنا. ولكن هل يكون الحل في اتخاذ موقف وسط؟ وهل بالامكان اتخاذ هذا الموقف الوسط أم أن كلا الموقفين نابع من فكر واقعي ملموس بينما الموقف الوسط يبدو تلفيقياً خيالياً؟.

٦- ملامح البطل الشرقي بعد العودة

لا نجد إنساناً واحداً ذهب إلى الغرب وعاد كما كان بدون

أدنى تغير يطرأ على تفكيره وشخصيته، خاصة وأن أغلب هؤلاء الأبطال مثقفون ونموذجيون يمثلون الشرق ورغبته في التقدم والرقي الحضاري، حتى الراوية في « موسم الهجرة إلى الشمال » الذي يزعم أنه لم يتأثر بالغرب بل قضى سنواته السبع في شوق إلى أهله وشمس بلاده، نجد تغييراً مهماً فيه لا يتمثل بنوعية نقمته على فساد الحكم بل في موقفه المتميز في مقتل « حسنة ». فما هي الملامح الجديدة التي تطالعنا عند الشرقي العائد؟

١ - الرغبة النهضوية: يعود البطل الشرقي ممتلىء النفس بالرغبة في أن يرى بلاده متحضرة ومتطورة كالغرب، بل أكثر من الغرب! فهو يود أن يتحاشى في بلاده النقاط السود التي يعاني منها الغرب في نظره. رواية « الحي اللاتيني » تختتم على مشهد العودة إلى الشرق واعلان بداية السير إلى النهضة المنشودة. و « موسم الهجرة إلى الشمال » بحث كامل في امكانيات التيارات المطروحة للنهضة، و « عصفور من الشرق » برغم سلبيتها، هي في حد ذاتها صرخة شرقية للنهضة. ولكن القاسم المشترك بين كل القصص رغبةٌ نهضوية، أي مجرد عاطفة لم تصل بعد إلى حد الفعل والخلق، بل هي لا تملك الوصول إلى هذا الفعل كما تظهر « موسم الهجرة... » ولذلك شددنا على كونه رغبة.

٢ - تحرر المرأة النسبي: حالة المرأة المزرية تؤلم البطل الشرقي، ليس لأنه لن يستطيع أن يجرها إلى سريره بل لأنها لا تتمتع بشخصية ناضجة وواعية - إنه لا يلمس بعداً شاسعاً بينها وبين المرأة الغربية فحسب، بل بينه وبينها أيضاً، مما يكاد يشكل عائقاً في علاقته بها. إنه يريد أن تتحرر قليلاً، ان لا تصل إلى « حيوانية » المرأة الغربية بل إلى علمها وفهمها وثقافتها. وبدلاً من ان تبقى على جهلها وتخلفها يريدها ان تقف إلى جانبه في عمله الدائب للنهوض ببلده.

٣ - تبني العلم الغربي ورفض الفكر الغربي: لأن العلم الغربي يطالع الشرقي في كل مكان في الغرب أو الشرق، ولأنه الأساس الظاهر للنهضة الغربية التي ادهشته، ولأن الحياة التعيسة التي يعيشها الغربيون في نظره معرّوة إلى فكرهم، يتبنى البطل الشرقي العلم الغربي ويرفض فكره، مستبدلاً به الفكر الشرقي الإسلامي، فيؤمن لنفسه جذوراً تاريخية من جهة، ووجهاً حضارياً من جهة ثانية، فيستطيع عندئذٍ أن يستعمل الآلة والمخترعات الحديثة ووسائل التنظيم الفعالة التي شهد لها بالفعالية، وفي الوقت يحافظ فيه على تراثه وعاداته وتقاليده.

٤ - عدم التكيف التام مع الشرق الحالي: أغلب الأبطال الشرقيين يعانون من شوق جامح إلى تلك البلاد التي قضوا فيها أياماً ممتعة، وربما أجمل أيام حياتهم، فيتملكهم الشوق غالباً إلى العودة. بعض هذه القصص تشير صراحة إلى ذلك كقصة « بوق سان جرمان » ولكن هذا الحنين-يتخذ صوراً أخرى كعدم التكيف التام مع الشرق كما في أغلب القصص التي تستمر بعد العودة. مصطفى سعيد لا يردد كلاماً انكليزياً في نومه وفي سكره بل هو قد بنى غرفة كاملة على النمط البريطاني الغربي، وكذلك بطلة « البلد البعيد الذي نحب » و « البيت العربي السعيد » لديزي الأمير. لا ريب أن هذا الحنين هو حنين رمزي إلى النهضة التي شاهدوها والحرية التي لمسوها ورفضوا بعض ملامحها. ولا ريب كذلك أن عدم التكيف الذي يعانون منه هو الشكل الآخر لخيبة الأمل المريرة في النهوض ببلادهم إلى مستوى الحضارة الغربية بل إلى أجمل منها.

٧ - ملاحظات حول شخصية البطل الشرقي

بعد هذه المحاولة للتفرس في ملامح البطل الشرقي واكتناه أعماقه، نودّ أن نبدي بعض الملاحظات حول شخصية هذا البطل، ونناقش مسلّماته الأولى التي نعتبرها عقبة في وجه توجهه الصحيح نحو هدفه النهضوي:

١ - اسطورة الروحانية: الصفة المشتركة بين جميع القصص هي روحانية الشرق ونفي هذه الصفة عن الغرب وبالتالي نفي صفة المادية عن الشرق، كما يتم الخلط بين المادية كفلسفة والمادية كمعنى مبتذل أي كأسلوب حياة قائم على المادة أي المنفعة وتقديس المال، ويتم التنقل بين المعنيين بالشكل الذي يخدم فيه البطل الشرقي. بحيث يصبح الشرق الخالي من الفلسفة المادية خالياً من العلاقات المادية المبتذلة ثم يصبح الغرب كله ماديات والشرق كله روحانيات. فما هي منطلقات الشرقي في هذا المفهوم؟

١ - الدين: إذا كان الدين يهيمن بشدة على الشرق، فهل هو مفقود في الغرب؟ بالطبع لا، إذ أن هناك ملايين المؤمنين الذين يرتادون الكنيسة بنظام. والمسيحية، كما هو معروف، أكثر الأديان روحانية. في « عصفور من الشرق » تطالعنا في المشهد الثاني من البداية صورة الكنيسة في باريس وتمتلىء نفس بطلها محسن بالرهبة. فبيوت العبادة تحمل على الخشوع مهما كانت. ولكن السؤال الأهم هو: هل يؤمن الغربيون بالطريقة نفسها التي يؤمن بها الشرقيون؟ وتوضيحاً لهذا السؤال نضيف بعض الأسئلة المساعدة على بلورة الصورة: هل يهيمن الدين على كافة فروع الحياة؟ أي هل هو المهيمن الأكبر في الدولة؟ هل يختلط الدين لديهم بالكثير من الفكر الخرافي؟ وإن كان هذا السؤال يشير إلى اختلاط الدين لدينا بالفكر الخرافي، فهذه حقيقة واقعة، وتاريخنا مليء بالحركات الدينية التي نادت بتطهير الدين من الخرافات التي اضافها العامة والعودة إلى القرآن كالوهابية مثلاً.

وهكذا نجد أن الدين الذي يطهر النفس قائم في الغرب كما هو قائم في الشرق. وإذا كان الغرب قد تبنى العلمنة، فإن هذا لا يمس الجوهر الديني الذي ينظم علاقة الإنسان بخالقه ويشدد على الأخلاق الحميدة بين الإنسان وأخيه الإنسان. ونحن نجد الكثير من المظاهر الدينية في الغرب بالرغم من هذه العلمنة (زيارات البابا مثلاً تستقطب مئات الألوف من المستقبلين).

ب - العلاقات « المادية » النفعية: إن اتهام الغرب بالعلاقات « المادية » النفعية وعدم الإشارة إلى وجودها في الشرق بطريقة تنفي وجودها أمر يدحضه الواقع. فتراثنا حافل بالإشارات إلى هذه العلاقات في شرقنا، حتى أن بعض الابيات الشعرية التي تصورها قد صارت امثالاً. كقول طرفة « وظلم ذوي القربى... » وقول آخر « فما أكثر الاخوان... » أو الامثال الشعبية « احفظ قرشك الأبيض ليومك الأسود » والنصوص التي تصور الغني الذي يفتقر فينفض عنه أصدقاؤه. إن لدينا بالطبع الكثير من العلاقات الإنسانية، ولكن من قال إن الغرب يفتقر إليها؟ لقد تحول بعضها في الغرب إلى هدف لمؤسسات أي إلى عمل اشتراعي بدلاً من أن يبقى عندنا مرهوناً « بالإحسان » وبطيبة الأشخاص ومروءتهم. ونحن نستطيع أن نجد في قوانين الغرب العديد من المسائل التي ما زالت في حيز الأخلاق الحميدة عندنا، ومعروف جداً أن الحضارة بقدر تطورها تتمدد قوانينها على حساب الأخلاق. فدفع أجور معينة للعامل العاطل عن العمل، ومساعدة الأهل في تعليم أولادهم عبر التعليم المجاني الرسمي وتقديم المعاش التقاعدي للعامل الذي يبلغ سناً معينة... كل ذلك يدلّ على أن الغرب قطع مراحل كثيرة في طريق تدعيم العلاقات الإنسانية. ونحن إن تمتعنا اليوم ببعض الضمان الصحي والاجتماعي وبعض المكاسب الأخرى، فذلك عائد إلى اقتباسنا لها من الغرب بحيث باتت حقوقاً مكتسبة بعد أن كانت في حيّز الأخلاق، وكان كل هؤلاء المستفيدين منها تحت رحمة المحسنين و« أولاد الحلال ». وإذا كان هناك من فرق في نمط الصداقة أو في بعض العلاقات الأخرى بين الشرق والغرب فإن قسماً كبيراً من هذه العلاقات في الشرق لا يعود إلى حميميتها بقدر ما يعود إلى المبالغة التي تميز الشرقي وإلى التفكير غير العقلي بالعادات ذات الطابع العشري ونمط الحياة المتخلف فيه، وهو ما يؤمن حرية تحرك هائلة، مع التأكيد أننا نلاحظ ذوبان الكثير من هذه العلاقات واحتضارها (أو بدء احتضارها)، كما نلمس تأففاً كبيراً من البعض الآخر الذي ينوء بثقله على حرية الفرد. مع التأكيد على وجود علاقات حميمة أقل إتساعاً في الغرب كما في الشرق، ونحن نلمس لها وجوداً قوياً في « زهرة العمر » مثلاً. وإذا كان الحكيم شرقياً فإن اندريه غربي وليس ثمة فرق بينهما إذ لم يكن اندريه أقل صداقة من توفيق الحكيم، بل ربما كان أكثر احساساً بهذه الصداقة، حيث أنه قد حافظ على جميع رسائل صديقه ومانع في اعطائه إياها الا بعد وعد بإعادتها، ولم يعدها توفيق الحكيم كما وعد الا بعد وقت طويل. ونحن لا نهدف من هذا الا إلى تأكيد وجود العديد من الصداقات والعلاقات الحميمة التي نتباهى بها في الغرب.

لا ريب أن البعض سيجابه ما سبق تحليله بالمقولة التالية: وهل الحضارة إنتفاء للقيم، أي هل هي تسبب تعاسة الإنسان بدلاً من سعادته؟

ونحن لا نملك أمام هذا السؤال - المقولة الا أن نتساءل: وهل عدم التحضر أمر ممكن؟ وهل السعادة هي في هذا النوع من الحياة، أي هل هي في حد ذاتها مفهوم مطلق أم أنها نسبية قد تختلف بإختلاف المجتمعات؟

جـ - التمييز بين الحب والجنس:

أغلب الرجال الشرقيين يميزون بين الحب والجنس، وهم لا يرفضون أية علاقة جنسية تتاح لهم، فلماذا يعتبرون فعلهم روحانياً وفعل الغربي حيوانياً؟ هل لأن الغربي هو أمرأة؟ هل لأن هذا الفعل في الغرب يحاط بصدق وشفافية بدلاً من الكذب والتملق الذي يحاط به في الشرق؟

هذا مع العلم أن معظم القصص تصور لنا حب المرأة الغربية للبطل الشرقي، وليس حب الشرقي للمرأة الغربية مع تظاهره بذلك الحب بكل تأكيد وإحاطة علاقته الجنسية بالمرأة الغربية بكافة أنواع الخداع والكذب والتدجيل. فمصطفى سعيد أنتحرت من أجله ثلاث فتيات أي أنهن قد ذهبن في حبهن إلى أقصى درجاته، وبطل « الحب اللاتيني » أحبته جانين حباً هائلاً، وكذلك بطل « عصفور من الشرق » فقد تجاوبت معه سوزي بالرغم من حاجتها إلى غرام صاحب العمل بها لأنها شعرت بحبه وبادلته الحب قدر استطاعتها. ولكن الشرقي هو الذي كان يتظاهر بالحب دائماً ويفصل بين الحب والجنس ويقوم بشتى الحيل من تعاطي الخمرة إلى استحضار الشرق الأسطوري إلى الوعد بالحب الأبدي إلى الأكاذيب العديدة كي يجر الفتاة الغربية إلى سريره ثم يلفظها فيما بعد. فأين الروحانية في تصرف الأبطال الشرقيين في الغرب؟ وأين هي العلاقات التي يرذلونها في الغرب من علاقاتهم هم أنفسهم بهذا الغرب؟

د - سرعة الحياة في الغرب: السرعة التي يلاحظها الشرقي في الغرب ليست إلا تقديراً للوقت وإعترافاً بأهميته. فحتى الوقت الذي يحتاجه الغربي للوصول إلى مكان عمله نراه يفضل الإستفادة منه فلا يهدره في الثرثرة أو في ما لا طائل تحته، بل يحاول أن يقرأ فيه أي أن يستفيد منه لتطوير شخصيته لا سيما في بلدان تعمها حرية الرأي، إذ يستطيع الفرد أن يعبر عن نفسه دون أن يلقى به في السجن أو دون أن تغلق في وجهه جميع الوظائف أو دون أن يتهمه الآخرون بالخيانة وفي أحسن الأحوال بالبلاهة.

إن أكثر الأشياء قيمة في الغرب هو الوقت، وأقلها قيمة في الشرق هو الوقت، حيث تستغرق لعبة الورق نصف النهار ويدوم تدخين النارجيلة فترة بعد الظهيرة أو تضيع زيارة صباحيّة فترة الصباح بكاملها في ثرثرة قد لا ينجو منها الكثيرون. هنا حيث هدر الوقت عادة متفشية كالتدخين تماماً وحيث النميمة وتناول حياة الآخرين ليس عادة قبيحة بل حق لكل إنسان، مع كل ما يؤدي إليه من مشاكل، هذه هي الروحانية! أما هناك، حيث يحترم الناس الوقت ويفيدون من كل ثانية ويعاملون الآخرين بكل احترام، فتلك مادية قذرة! وهكذا نجد أن روحانية الشرق أسطورة وليست واقعاً، أسطورة

ناتجه عن بعض المسلمات السلبية وليس عن بعض الحقائق الواقعية الموضوعية. وكما أن الغرب في رأينا لا يخلو من روحانية حتى في ميدان الفلسفة، فإن الشرق لا يخلو أيضاً من مادية. ففي الأثنين من النمطين، وما الإصطلاح الشائع إلا أسطورة آن لنا أن نعي أسطوريتها.

٢ - افتقاد المميزات الشرقية في العديد من الابطال الشرقيين: هذه القصص التي تصور لنا لقاء الشرق بالغرب وملامح هذا الإحتكاك وتفاعلاته ونتائجه، تفاجئنا بأمر مثير للانتباه هو افتقاد المميزات الشرقية في العديد من الأبطال الشرقيين. فهل بطل «الحي اللاتيني» يتحلّى بهذه المميزات أم هو نسخة مشوهة عن الرجل الغربي؟ وهل مصطفى سعيد بطل «شرقي» في علاقاته بفتياته؟ إنها يبدوان مثل الغربي تماماً بل ربما أسوأ من المثال الغربي الذي يرسمانه ليظهرا قذارته. ففي مقارنة بسيطة بين خطيب جانين في «الحي اللاتيني» وبين بطلها الشرقي لا يستطيع هذا الأخير أن يثبت في مواجهته، وكذلك الحال بين مصطفى سعيد وحبيباته.

أما محسن بطل «عصفور من الشرق» فيقنعنا أكثر بشرقيته في ميدان العلاقة بالمرأة، ولكننا نفتقد هذه المميزات في الميادين الأخرى، ميادين العمل والثقافة والعلم. فقط أبطال فؤاد الشايب يلفتون النظر بشرقيتهم، فأحمد يمثل الشرقي تماماً في «الشرق شرق» بكل أبعاده فهو يختلف عن محسن الذي أندفع فوراً إلى أحضان سوزي.

نحن نشير إلى افتقاد المميزات «الشرقية» أي المميزات التي يزعم عادة أن الشرقي يتحلى بها، ولكننا إذا نظرنا بعطف أقل وبموضوعية أكبر، نستطيع أن نرى في هؤلاء صورة صادقة عن الشرقي الحقيقي. فبطل «الحي اللاتيني» شرقي تماماً. وما تطوّر شخصيته عن شخصية أحمد في «الشرق شرق» إلا تجسيد للتطوّر في الشرق بين الفترتين. ومصطفى سعيد أيضاً شرقي بكل معنى الكلمة، و هو لا يملك الا أن يكون شرقياً. هؤلاء هم رجالنا: أنهم وجوهنا السوداء التي نتفنن في تغليفها بالوان براقة. إنّ كبت بطل «الحي اللاتيني» وتوقه الحاد إلى النهضة ومأساة مصطفى سعيد وشجاعته الكبرى وجوع بطل «السنفونية الناقصة» إلى الجنس، كلها تمثلنا، تمثل شرقنا في سيرورته مع أساطيره ورغبته المتأججة في التطور.

٣ - الفكر التجزيئي: الفكر الذي يعتنقه الشرقي هو فكر تجزيئي تلفيقي، فهو يريد أن يأخذ من الغرب علمه من غير أن يدين بفكره، متناسياً أن العلم الغربي هو نتاج الفكر الغربي. وأن العلم ما كان يستطيع أن يعم وينتشر ويبدع لو لم يؤمّن له الفكر القاعدة اللازمة لذلك. هل نستطيع أن نستفيد من العلم الغربي مع بقائنا في قبضة تفكيرنا الخرافي البعيد عن مقولة السبب والمسبب؟ إن استخدامنا لأحدث المنجزات العلمية الغربية فيما نحن نعيش في العصور الوسطى في نمط تفكيرنا، هو نوع فريد من الحياة وأستلاب كامل وتأييد لحالة التخلف التي نوّد الخروج منها. إذ كيف نستطيع مثلاً تنظيم الأسرة والحد من النسل بعيداً عن التفكير العقلي العلمي؟ كيف نستطيع تصنيع المحاصيل الزراعية إذا كان البعض يتساءل حول أكل هذه المعلبات: أحرام هو أم حلال؟ وكيف نستطيع أن نقوم بثورة علمية إذا كنا مـا نزال خاضعين لمقولة الحظ والقدر؟ وكيف نستطيع أن ننظر إلى الآخرين عامّة والغرب خاصّة بإحترام ونقرأ نصوصه بموضوعية إذا كنا ننظر إليه من خلال أساطيرنا؟ إن تجزئة الحضارة الغربية إلى علم وفكر لا يمكن أن يؤدي إلى نتيجة، إذ أن الفكر وحدة متكاملة، ونحن مطالبون بدل أن نقف بشكل تلفيقي في منتصف المسافة بين الشرق والغرب بأن نمتلك فكراً متكاملاً ونظرة شاملة إلى كافة مرافق الحياة الاجتماعية. وما لم نؤمن نظرة متكاملة، فإننا لن نستطيع أن نحقق شيئاً ولن نرى النهضة التي نحلم بها على الإطلاق.

٤ - غياب البعد السياسي: من الأشياء المثيرة للإنتباه أن البطل الشرقي لا يخوض في الجانب السياسي أبداً! فلا هو يعزو بعض المساوىء إلى نظام الحكم ولا هو يقارن بين الأنظمة السياسية العربية والغربية، ولا يمتلك ثقافة سياسية جديرة بالتقدير، بل هو يذهب إلى أبعد من ذلك، يذهب إلى المساواة بين نظامين متناقضين، النظام الاشتراكي اليساري والنظام الرأسمالي اليميني. نحن لا ندعو هنا طبعاً إلى الاشتراكية ولا إلى الشيوعية. ولكن البديهي أن هذين النظامين مختلفان جداً إن لم يكونا متناقضين فلماذا يتم المساواة بينهما مع أن الكثير من مساوئ الغرب الرأسمالي نجد جواباً لها في طبيعة النظام نفسه؟ لماذا غاب الفكر السياسي عن كل هذه القصص؟ هل لأن في النظام الاشتراكي مساوىء من طبيعة أخرى؟ هل لأن الشرقي يبحث عن نظام ثالث يتلافى مساوئ النظامين؟ ولكن لماذا لم تتم محاولة إكتشاف هذا النموذج الخاص؟

إن اهمال الجانب السياسي ضعف في الرواية. كما أنه ضعف في شخصية البطل، وإذا كانت الرواية غير مطالبة بتجسيد كل شيء فإن من المستغرب أن نهمل هذا الناحية في كل الروايات المهمة التي بين ايدينا. نحن هنا نؤكد أننا لا نبحث عن رواية يمكن اعتبارها بوقاً لحزب، بل نريد بحثاً علمياً في الجانب السياسي وهو جانب مهم في حياة الإنسان وخاصة الإنسان الشرقي.

كما أن الجانب السياسي في الغرب غني جداً ويشكل فرصة خصبة للمواطن الشرقي، فإن هذا البطل الذي حشر نفسه في زاوية العلاقة العاطفية بفتاة غربية أضاع فرصة التفاعل مع الجوانب الأخرى في شخصية هذه الفتاة. ونشير إلى أنه قد أشير في «الحي اللاتيني» إلى بعض الجوانب الثقافية عند المرأة الغربية ولكن مسلمات البطل الشرقي السياسة و الثقافية لم توضع موضع إتهام ولا بحث، وهو ما أفقر الرواية وشخصية البطل وبحثه الدائب عن النهضة.

٥ - غياب الجانب الدراسي: مع أن معظم الأبطال ذهبوا

إلى الخارج، أي إلى الغرب الإستعماري للتعلم، فإننا نلاحظ اهمالاً غريباً للجانب الدراسي الذي قد يكون أخطر الجوانب في الاحتكاك الشرقي بالغرب. فنمط التعليم والأنظمة الجامعية والصعوبات الدراسية واللغة الأجنبية، كلها جوانب غنية غنى المعلومات الثقافية التي تدرس. فلماذا هذا التجاهل؟ مرة أخرى هل هي الزاوية التي اعتمدتها كافة الروايات؟ هل هي ضياع كل فرصة للشرق في مقارعة الغرب؟ هل هي قصة التفوق الشرقي الأسطوري الذي لا تقف عقبة في طريقه؟

٦- غياب النقد الذاتي المعرفي: الغائب الأكبر في كل النصوص بلا استثناء هو النقد الذاتي لمسلمات الفكر الشرقي. فمع احتكاك الشرقي رجلاً كان أم امرأة بمجتمع جديد، فإنه لا يعيد النظر في مسلماته بل يحكم من خلال مفاهيمه على المجتمع الغربي. فلا المرأة أعادت النظر بمسلماتها ولا الرجل أعاد النظر فيها بل عاد الإثنان ناقمين من جهة ومتشبثين بجذورهما من جهة ثانية، وراغبين في النهضة من جهة ثالثة. ولكن المسلمات المعرفية للفكر الشرقي العربي بقيت في منأى عن أي نقد، فأفلتت وأنقذت مرة أخرى. طبعاً قد يكون النقد الذاتي هو العملية التي تهدف هذه النصوص إلى إثارتها في ذات المتلقّي، وهي وجهة النظر الوحيدة التي تنقذ هذه النصوص عبر اعتبارها تصور سلبيات الشرقي وبالتالي تأمل أن يقوم المتلقّي بعد كشف سلبياته أمامه بعملية نقد ذاتي. ولكن كان من المفيد لنا لنحصل على نقد على صفحات الرواية. لا نعني بالضرورة ان يقدم لنا بديل ولكن أن تتم إشارة أكثر دقة إلى ضرورة نقد مسلمات فكرنا الشرقي بدلاً من أن تطرح المسألة بشكل غامض وغير مباشر.

إن غياب هذه المسألة وراء خيبة الأمل المريرة التي نشهدها والتي جعلت أكثر الروايات تسير في نمط واحد تقريباً وكأننا ما زلنا في مرحلة الرواية الأولى. إن أية عملية بناء لن يمكنها أن تحدث ما لم تسبقها عملية هدم لأساطيرنا التي تتحكم بنا، ونحن لن نتوصل إلى أي حل في التكرار بأن الغرب مريض يحتضر، فقد أثبت الغرب حتى الآن حيوية مدهشة تبدو بوضوح في إزدياد المسافة التي تفصله عنا. وما لم نقم بالعمل على النظر إليه نظرة موضوعية تصحبها عملية نقد ذاتي لفكرنا ومنهجياتنا، فإننا مهددون بسيل من الروايات المشابهة، أي بصرخات أخرى من خيبة الأمل التي لا تنقطع.

بيروت

ثبت القصص القصيرة والروايات

١ القصة القصيرة:

حقي، يحي: (قنديل أم هاشم) دار المعارف بمصر ١٩٥٤.

محي‌الدين، صباح، السنفونية الناقصة (السنفونية الناقصة- بوق سان جرمان) دار الآداب ١٩٥٨ بيروت.

الشايب، فؤاد: تاريخ جرح (الشرق شرق- أحلام يولاند). اتحاد الكتاب العرب. دمشق ١٩٧٨.

السمان، غادة: ليل الغرباء (المواء- بقعة ضوء على مسرح- يا دمشق). منشورات غادة السمان بيروت ١٩٧٩ طبعة خامسة.

الامير، ديزي: البلد البعيد الذي نحب (الضباب- إلى جدتي) دار الآداب ١٩٦٤.

٢- الروايات:

الحكيم، توفيق: عصفور من الشرق. مكتبة الآداب مصر ١٩٣٨.

إدريس، د. سهيل: الحي اللاتيني، دار الآداب، بيروت ١٩٧٧ طبعة سابعة.

صالح الطيب: موسم الهجرة إلى الشمال، دار العودة، بيروت ١٩٧٢ طبعة ثانية.

سلمان، نور: فضحكت، دار النشر للجامعيين بيروت ١٩٦١.

دار الآداب تقدم

مُذكرات أحمد بن بلّة

كما أملاها على روبير ميرل

يسر «دار الآداب» أن تعيد اليوم نشر مذكرات الرئيس أحمد بن بلة الذي أطلق سراحه أخيرا بعد أن قضى أربعة عشر عاما في السجن من غير محاكمة .وقد تم الافراج عنه بمناسبة الذكرى السابعة عشرة لاستقلال الجزائر بعد بضعة أشهر من وفاة الرئيس الراحل هواري بومدين .